لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون».

أما باقي الخطبة فانفجارات غضبية، وتهديد لا اعتدال فيه وتحقير لا حدود له، «إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها»، وقوله: «والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل» وقوله: «وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحي».

وعندما تيقن الحجاج من انهيار أعصاب سامعيه بذلك الوابل من التهديدات التي أمطرهم بها، ولما تيقن أيضا من عجزهم عن المقاومة، كشف عن مطالبه التي لابد في حالة الرعب والذعر التي خلقها في نفوسهم من أن يستجاب لها، لأنها وليدة الخوف لا وليدة الاقتناع، «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله».

ولكن على الرغم من ذلك، فإن معظم منتخبات الحجاج تمثل نموذجا للخطبة العربية الإقناعية.

II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج:

II-1- التحاور:

هو فعالية خطابية تقوم على المشاركة والتعارض كآلية أساسية، وقد عرفه «طه عبد الرحمن» بقوله: «هو أن يتقلب المتحاور بين العرض والاعتراض منشأ لمعرفة تناظرية وفق مسالك معينة»[1]، ولهذا فإن التحاور هو

1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، د.ط، 1987، ص: 43.

أعلى مراتب الحوارية بعد المحاورة والحوار الذي يعتبر أدنى مراتبها، لأنه يقوم على عرض الخبر، ومحاولة إلزام المعروض عليه بتصديقه وإقامة الأدلة عليه، والتيقن بصدق قضايا دليله، شأن الحوار السياسي والإيديولوجي والفلسفي[1].

II-2- الفاعل:

أسلم طريقة لرصد وعي هذا العالم، هي الوقوف عند الممارسة الخطابية التي يخترقها الفاعل، وعناصر هذه الممارسة في تفاعلها من أجل إحداث الأثر. وهذا يعني أن القائم بفعل التحاور ينشق إلى ذات عارضة (قائلة) وأخرى معترضة (مقول لها)، فالأولى تعرض، والثانية تعترض، وما إن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه الخطاب مخاطب، كما لو كان المتكلم يسمع كلامه بأذن غيره، وأن غيره ينطق بلسانه. ويتجلى التعارض من خلال العلاقة التخاطبية التي تقام في نص الخطاب بين متكلم ومخاطب حقيقي أو مفترض[2].

ومن هنا، لابد في التشكيل التحاوري من أن يبلغ المتحاور درجة من التفاعل يكون فيها قادرا على منازعة نفسه، والنهوض بمواقف خطابية متفاوتة مع مواقف الذات، والاعتراض عليها ومعارضتها[3].

ويتم التشكيل التحاوري بأساليب مختلفة هي بمثابة الإستراتيجية التي يتم بها التحاور، وتتكون حسب الخطابات من آليات للتوجيه والتأثير، كتعدد أفعال الكلام، واختلاف ذوات المتكلمين والمخاطبين باختلافها، وغيرها من أساليب التفاعل والتبادل كالمحاجة وغيرها مما يسهم في التواصل الخطابي

1)- المرجع نفسه، ص: 31-47.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

3)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 46.

وإحداث التأثير[1].

ولهذا عمدنا إلى استغلال الأدوات الإجرائية للدرس التداولي نظرا لما يمنحه للباحث من إمكانات في وصف ظاهرة التواصل داخل الخطاب، والتي قد لا نستطيع في بعض الأحيان أن نتلقاه ونتفاعل معه إلا من خلال هذه الإمكانات.

وتلخص الباحثة «أوركيوني» (Orecchioni) منحى أصحاب الاتجاه التداولي في تحليل الخطاب بقولها: «إن كل تحليل للخطاب يجب أن يبدأ بالتعريف بما نسميه أحيانا «الجهاز الشكلي للحديث» أي وضع مختلف الفاعلين في الحديث داخل النص»[2].

وانطلاقا من هذا، لا شك في أن تضمين الآخر في الخطاب هو المعطى الأساس الذي يتطلبه كل حديث؛ إن المتحدث بمجرد الإعلان عن نفسه كمتكلم، يكون قد وضع شخصا آخر أمامه، وحدد لنفسه المقام الخطابي بين (أنا) و(أنت) وإن كان (أنا) و(أنت) «لا يضمران مفهوما ولا شخصا معينين، لكنهما يسمحان للمتكلم من احتلال مترلة الفاعل في الخطاب مع علاقة تتوفر بينه وبين المرسل إليه»[3]، ليبدو التحاور والتشكيل التعارضي بعد ذلك الشكل الطبيعي لكل خطاب بدرجات متفاوتة[4].

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

2)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Catherine Kerbrat Orecchioné, Armand colin, Paris, 1980, P : 158.

3)- مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ك.فوك، ب.لوفوميك، ترجمة: منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 135.

4)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 93-94.

II-3- بنية الدعاء:

الدعاء هو فعل الكلام الذي تجتمع فيه أفعال جزئية كالطلب بالأمر والنهي، والنداء وكذا الشرط، وهي وسائل تمتلك الكفاءة اللازمة التي يتم بها تحقق النشاط الخطابي، وضمان المشاركة، وإحداث التأثير لما تحمله بنية الدعاء من قوة كلامية (force illocutoire) تريح المتلفظ بها، لأنها فعل الكلام الذي لا يتحقق إلا بها[1]. لذلك قال «أبو علي الدقاق»: «الدعاء مفتاح الحاجة وهو متروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب»[2].

أما «كاترين كارير» فإنها ترى: «أن المشروعية الخطابية لقول ما تقاس بمدى فائدته، وليس بقدرته على الإخبار»[3]، ولهذا فإن الدعاء سلطة أدبية يتكئ عليها المتكلم ليمارس خطابه مع الآخر، سواء من حيث تلك الأوامر والنواهي، أو تلك العروض التي يقدمها له؛ ويقرن محتواها بالغرض أو الفائدة التي يرجوها، على أن يحيط هذه الفائدة بهالة من الصدق، وإن كان «مانقينودومينيك» يرى أنه: «على المستوى الخطابي ليس هناك صدق أو عدم صدق، بل هناك ذوات تقول ما يجب قوله من أجل أن تكون أكثر اندماجا»[4].

يستنتج مما سبق، أن الدعاء (أمر، نداء، شرط) بنية مؤطرة تسهم في فرض شروط التخاطب، ومن ثم ضمان استمراره لأنه كفعل كلام يدار به

---

1)- المرجع نفسه، ص: 96.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- l'implicite, Catherine Kerbrat Orecchioné, Edition Armand Colin, Paris, 1986, P :200.

4)- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Bordes, Paris, 1990, P: 105.

الحديث، ويمنحه بعض هذه القوة الكلامية التي يمتلكها، والتي لا تتمثل في مدى صدقه، بقدر ما تتمثل في نجاحه عندما ينتهي فعل الدعاء، لذلك – غالبا– ما يأتي الدعاء ليعكس إعلان المتكلم عن حصول الأثر المتمثل في ذلك الوفاق الذي يتم بينه وبين المتلقي[1].

وهكذا تتجلى وظيفة الدعاء بعده الدعامة الأساسية التي يحقق بها الخطيب إستراتجية التحاور والإقناع، والخطيب البارع هو الذي يعرف كيف يستغل الدعاء كوحدة مؤطرة تدعيمية أحيانا داخل الخطاب، وأحيانا أخرى كرقيب يظهر ويختفي كلما اقتضى المسار التخاطبي.

وإلى جانب أن للدعاء وظيفة تدعيمية توجيهية لمسار المخاطبة، فإنه يأتي ليؤدي وظيفة تعويضية لانعدام رد الفعل من قبل السامع، أو بعد خفوت التبادل، إذ يكسر من أحادية الخطاب، وخاصة ذلك المرتبط بالنصائح والأوامر والنواهي، والتي قد تطول لارتباطها بمعارف معينة، وقد تفتح مسارا للخطاب مخالفا لما كان، كأن تؤدي إلى استمالة واسترضاء بعد تأنيب وزجر (كما في خطبة الولاية)، وهنا يأتي الدعاء كمبرر باعتباره كوحدة تدخل (intervention) ضمن بنية التبادل التخاطبي[2].

وبعد هذا العرض لتلك الأدوات الإجرائية يبدو جليا أن ما استعمله الحجاج في منتخباته من أساليب بيانية استخدمه مراعيا في ذلك قدر الجمهور المستقبل الذي يوجه إليه الخطاب لأنه كما يقول أبو هلال العسكري «ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار

1)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 97.

2)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 99.

الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقتسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[1].

ولاشك أن الدعاء الذي يتضمن النداء، والأوامر والنواهي يعد من بين الآليات التي تسمح للخطيب بالنفاذ إلى نفسية المتلقي وإلى قلبه وعقله معا، وبالتالي تحقيق القصد من وراء تلك الأقوال التي يوردها الخطيب. «يا أهل الكوفة، يا أهل العراق» في خطبة الولاية، وكقوله «يا أيها الناس» في خطبة البصرة.

وبالإضافة إلى وظيفة الدعاء، فقد أكد النقاد القدامى أن لحسن الاستهلال وحسن التخلص، ومواقف استعطاف السامع واستمالته، ودفعه إلى أشياء وقبضه عن أخرى هي طريقة تقوم وراءها غاية أو سياسة، ولذلك يجب «أن يتوفر في عدته حتى يبلغ غايته مهما تنوعت، وتنجح عملية التخاطب الأدبي وهي سياسة محورها الخطاب، ومعيارها المتقبل الضمني، وإن كان مرامها المتقبل الصريح»[2].

ولأن الدعاء المتضمن للنداء والأمر والنهي، مرتبط في الكتابة العربية بالخطبة، وبين الخطبة والرسالة صلة وثقى، والخطبة لها حظ وافر من أمر الدين؛ فإن ذلك ينسحب على وحدة الدعاء ووظيفة الأثر الذي تحدثه عند سماعها أو تلقيها، لذلك نجد الحجاج، يكرر في التهديد والوعيد بعض المعاني التي يرجو من خلالها تحقيق تلك الأقوال وضرورة تحقق تلك المعاني المرجوة

1)- الصناعتين، أبو الهلال العسكري، ص: 153.

2)- جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 1993، ص: 21.

في النفوس والعمل بها في الواقع ومن ثم تحقيق القصد.

ومن ذلك قوله: إن أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه– المتضمن الدعاء للأمير بطول العمر، هذا الدعاء الذي يؤثر –لا محالة– في نفسية الأمير الذي بيده أن يرفع من شأن الحجاج ويحط من قدر غيره، وخاصة وأن عبد الملك بن مروان يرى أن الحجاج هو سيفه الذي لا ينبو، ويده التي تبطش بكل عدو للأمير.

وبالإضافة إلى ذلك فإن فعل الدعاء بنية تتدخل في تفعيل الدور الخطابي وتمكينه من نفسية المخاطب، وتؤدي وظيفة نفسية تدخل ضمن استمالة السامع، واستدراجه للحديث، كما تعكس ضمنيا الرغبة من قبل المتكلم في الحظوة ونيل الاحترام من أجل الانصياع لكلامه الذي غالبا ما يكون مثقلا بمعارف ومفاهيم هي خلاصة ما خرج به الحجاج من نقمته وحقده على أهل العراق.

ونجد هذا حينما تفرغ بنية الدعاء من محتواها لتختزل في جملة النداء «يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، أيها الناس» ويكون ما بعدها عرضا لتلك الأفكار والمعارف التي يود إيصال معانيها إلى جمهوره، وكأن النداء في منتخبات الحجاج هو فعل الكلام الذي يثير الكلام.

وإذا ما اعتبرنا المخاطبة حديث بين متكلم ومخاطب، فإن التبادل واستمراريته، يبدو وكأنه ينشأ بقوة ذلك النداء وتلك الأوامر والنواهي، بل إن إدراك الذات والآخر والعالم لا يتم إلا بواسطة الكلام، إضافة إلى ذلك النفوذ الطبيعي، وتلك السلطة التي يمتلكها الحجاج[1].

1)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 101.

يقول أبو حيان التوحيدي: «يا هذا خذ من التصريح ما يكون بيانا لك في التعريض، وحصل من التعريض ما يكون زيادة لك في التصريح، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة، ولا سمة، ولا علامة، ولا اسم، ولا ألف ولا باء إلا وفي مضمونه آية تدل على سر منطوي وعلانية منثورة، وقدرة بادية، وحكمة مخبورة، وإلهية لائقة، وعبودية شائقة وخافية مشوقة، وبادية معوقة، فاصرف زمانك كله في فلي هذه الأثناء واستنباط هذه الأنباء»[1].

فاللغة هي التي تمكن المتكلم من الإحالة إلى نفسه في كل مرة، كما قد توحي بذلك من خلال السلطة التي يمارسها على الآخر، فبمجرد ما يوجه المبادرة إلى الأنت يحوله إلى أنا، ويتحول إلى أنت وهكذا[2]. فأما «كون أنا يحيل إلى نفسه فذلك استجابة لخاصية الانعكاسية (réflexivité) ولكنه يتحول إلى أنت بمجرد ما يرجع الآخر (الأنت) هذه اللفظة لنفسه، وهو بذلك يدخل ضمن خاصية التناظرية (symétrie) وهي خاصية تواصلية إلى جانب الانعكاسية، حيث يكون مرسل الرسالة في الوقت نفسه، هو نفسه أول مستقبل لها»[3].

وذلك يعود إلى المكانة التي تحتلها المكانة المرسلة للخطاب الأدبي منه على وجه الخصوص، حيث يتجلى حضوره بدرجات متعددة، تبعا للممارسة الخطابية ذاتها من مقاصد وقدرة على التشكيل من خلال حضوره المباشر

1)- المرجع نفسه، ص: 102.

2)- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 5، نقلا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 102.

3)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P: 21.

الذي تدل عليه لفظة (أنا) في قوله (أنا ابن جلا، إني أرى، وإني لصاحبها،...) أو معادلاتها (وطلاع الثنايا، متى أضع العمامة تعرفوني، لا يغمز جانبي، لا يقعقع لي، أحذو، أجزي، ...) وحضور غير مباشر من خلال التعبيرات العاطفية والتأويلية والتوجيهية التي يوضحها السياق وتتبين من خلاله، ثم هناك الحضور الذي يتجلى من خلال مجمل الخيارات الأسلوبية وتنظيم الخطاب[1].

وبالإضافة إلى ما لبنية الدعاء (نداء، أوامر، نواهي) من وظائف، يظل النداء بمثابة العقد الذي يقيمه الخطاب في كل مرة يحس فيها بالهيمنة، وبمجرد ما نتوجه بالنداء إلى الآخر، فإننا نسمح له بمشاركتنا، ولأنفسنا بالتنازل بطريقة ما وطرح أسئلة يفترض فهما وردا يتطابق وفق الجهاز العاطفي والفكري الذي ينشئه المتكلم للتأثير على المخاطب[2].

وهكذا فإنه لا يمكننا أن ننكر الكفاءة التي يكسبها فعل الدعاء للخطيب، ولقد بينا بأنها المؤشر الأول للتواصل، وتتمثل تلك الكفاءة في حصول المعاني المرجوة من قبل الخطيب، ومن هنا فإن التحول في إنتاج الملفوظات والبحث عن الأكثر فائدة في تحصيل التفاعل لدلالة على حضور المخاطب وضمان التعاون مع المتكلم خطابيا، وتلك «سمة كل خطاب تحاوري حيث يضطر القائمون بفعل التبادل الخطابي إلى إيقافه ليكون استئنافه أنشط بعد ذلك»[3].

1)- Ibid, P: 159.

2)- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P: 159.

3)- Pragmatique pour le discours littéraire, P: 102.

وبعد، فإن الخطبة إذا ختمت بدعاء، فإن هذا الدعاء الختامي يجسد الوفاق بين المتكلم والمخاطب، ويعلن عن نجاح فعل التحاور الذي يحققه الخطيب بواسطة الاستدراج، تلك البنية التي يشتغل من خلالها على أفعال كلام تقلب بها الخطاب، وإن كان الحجاج قد ختم خطبة الولاية بالتهديد والوعيد الذي يستدعي القيام بالفعل على وجه الإلزام.

II-4- بنية الاستدراج:

إن التحاور لا يفترض فقط تبادل الكلام بين مخاطبين حقيقيين معا أو بين مخاطب حقيقي وآخر مفترض «ولكنه أيضا علاقة داخلية موضوعية وقصدية بين مشاركة متكلم وآخر يستحسنها ويقدرها»[1].

وتتأسس بنية الاستدراج من خلال النداء، وهو فعل طلب إقبال المخاطب ودعوته للمشاركة في الحديث أو السماع للخطاب، ولقد عبر الحجاج عن هذه البنية بالتخاطب والتحاور والنداء (يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق).

ويبدو فعل النداء في خطبة الولاية أو غيرها من خطب الحجاج مطلبا طبيعيا لكل فعل إبلاغي، لأن الإنسان ما يتكلم إلا ليشرك معه مخاطبا ما، حتى وإن انشق ذلك المخاطب عنه، عندما يحاول أن يجد نفسه فيما يغايرها[2]، وينشق المتحاور على حد تعبير طه عبد الرحمن «إلى ذات عارضة تثبت منطوق

1)- Stratégies discursives, actes du colloque du centre de recherches linguistiques de Lyon, presse universitaire de Lyon, 1977, P : 166.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 105.

القول، وإلى أخرى معترضة تصل المنطوق بالمفهوم المخالف»[1].

ولعل الحجاج يكون قد أدرك بحكم أنه عايش الانتقال من السلطة الشفاهية إلى سلطة الكتابة أن السماع هو بمكانة القانون الأول الذي تبني عليه المشاركة في الخطاب، لذا نراه بعد النداء يشرع في التهديد والوعيد ليعود من جديد إلى النداء ليعرض صفات أهل العراق، لأنه بفعل حصول الإقبال بعد النداء يحصل فعل السماع، ومن ثم فعل التخاطب «وذلك أن السماع وبال على السامع متى لم يؤكده بما يشهد الوجد به»[2].

وهكذا فإن السماع لا يؤدي فقط دور طلب المشاركة في الحديث، ولكن يحل ما قد يحصل أثناء المخاطبة من إشكال كعدم التجاوب من قبل المتلقي، وكذا خشية من توقف الفعل التواصلي بعد خفوته.

يبدأ الحجاج في استدراجه المخاطب بتقديمه صورة عن نفسه مخالفة لغيره، بها يعرفه أهل العراق، وهي ارتداؤه للعمامة بشكل مغاير، وبعد الافتخار بالنفس، وبأنه كالأمر الظاهر، ينادي أهل الكوفة ليخبرهم بأنه يحمل الشر ويجزي بمثله كل من سولت له نفسه عصيانا، مشبها إياهم بالثمار التي نضجت، وحان قطافها، وسيكون بلا منازع هو القاطف لهذه الثمار التي ما هي إلا رؤوسهم التي ستقطع، ودماؤهم التي ستراق، وستجري كالسيل العارم.

والملاحظ أن الحجاج يوظف أبياتا من النظم مراعاة للذوق العربي، وإن لم يكن قد استهل الخطبة بالتحميد والثناء كما جرت العادة، فذلك راجع إلى

1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 44.

2)- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 349، نقلا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 107.

نقمته على أهل العراق، وهو لذلك ينتقل بعد الافتخار بنفسه إلى عرض تلك الصور المرعبة التي -لا محالة- تحمل في طياتها توقع قابلية حصول التفاعل نظرا لمعرفة أهل العراق بشخص الحجاج وبمدى صدقه في أقواله وجديته في الإنجاز.

ومن هنا، فإن الهيئة الإخبارية التي وردت بها الأفعال الكلامية في خطبة الولاية، تستدعي مطلوبا، فعل حصوله ثابت بتلفظه، وهو طلب القيام بأمر، وهنا نلمس الدور العظيم الذي يعطيه الحجاج للكلمة، والفعل الذي يمكن أن يحدثه في النفس، لذلك لا نستغرب تلك الكفة الزاجرة التي يخاطب بها الحجاج قوما ألفوا العصيان والتخاذل، أن أداء الواجبات الدينية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أفعال خطبة الولاية لا تتضمن زمن الأمر ولكنها تمثل أوامرا ونواهي، لابد لأهل العراق من القيام بها أو الكف عنها، وإلا عوقبوا. وتشكل الأفعال التي استعملها الحجاج إفادة جمهوره الحكم الذي تتضمنه الجملة أو لازم الفائدة، إلى غرض الاستمالة والإغراء وخاصة إذا علمنا أن ردود أفعال جمهوره تنعدم، ومن ذلك قوله: «إنكم لطالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي» ففي هذه العبارات إخبار ولكنه يتضمن الكف عن هذه المعاصي، وقوله: «إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله» ففي هذه العبارات إخبار كذلك ولكنه يتضمن القيام بالفعل.

وواضح أن عبارات الحجاج في معظم منتخباته هي أقرب إلى الحكمة لما تتضمنه من معان أما استشهاده فإنه يخلق جوا للقبول لأنه يحمل بداخله

عنصر الاستدراج وذلك لما يتوفر عليه من قوة الحجة، لمجرد أنه آية من كلام الله؛ صيغت بطريقة تصور المشهد، مشهد أهل القرية الذين عصوا الله بعد أن أطعمهم من الجوع، وآمنهم من الخوف، ومشهد أهل العراق الذين سارعوا إلى الفتن وتخاذلوا في الدفاع عن إعلاء كلمة الحق، ووضعوا سنن تخالف ما شرعه الله. فإذا كان عقاب أهل القرية هو الجوع والخوف، فإن عقاب أهل العراق بالمثل، «من تخلف سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت مترله».

ومعلوم أن الخطيب عندما يشعر بفقدان التوازن التبادلي، فإنه يلجأ إلى الدعاء أو النداء أو الاستشهاد، أو الإيهام بتدخلات الآخر، وافتراض ردود أفعاله (قصة آدم وقتل ابن الزبير) وما ذلك إلا ليعيد التوازن ويحافظ على الاستمرارية الخطابية، كأن يقول: «إني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق»، «وإنكم لكأهل قرية...».

والذي نسجله هنا هو أن الرغبة الجامحة في الإقناع هي التي قد تدفع بالمتكلم إلى فرض التحاور بالقوة، مما يؤدي إلى التنافس وإيثار الغلبة، وقد يسبق الخطيب هذه «المهاترة» بتبرير كما يمكنه أن يتقيد بمواقف تفرض عليه السكوت عن بعض الجمل، يقول ابن حيان التوحيدي: «لعلك تقول بغفلتك وقلة تجربتك، وقصور نظرك، فلو سكت في الجملة كان أصلح من هذه الاستغاثة المكررة، ومن هذا العويل الطويل، ومن هذه البدايات المغرضة، ومن هذه الطرق المختلفة...»[1].

ولعل المعول عليه في السكوت عن بعض الجمل أو التقيد ببعض المواقف هو دعوة المتلقي للوقوف على المقاصد، وعلى مدى اختلاف المواقف الخطابية التي يخلفها اختلاف الحال، وإشارة إلى أن تشكيل خطاب ما، يفترض

1)- الإشارات، أبو حيان التوحيدي ص: 105، نقلا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص:110.

مجموعة من الخيارات التي قد يصعب تبريرها أو الإفصاح عنها من قبل المتكلم، وربما يفتح المجال كذلك للمتلقي كي يتحرك بكل حرية للقبض على غرض الخطيب، وكذا على تجربة أو خلفية أو محددات تاريخية أو سياسية أو اجتماعية تحكمت في إنشاء المعنى، وذلك أن النص الظاهر ليس في حقيقة الأمر سوى مزاحم لنص آخر يسري بين سطوره، وأن النص الخطابي الإقناعي في مجمله يحمل مجموعات من الأدلة لتحيل إلى مضامين أو تصورات بالإضافة إلى أنه ممارسة يتكون من خلالها الاتصال مع الآخر[1].

ومن هنا قد يكون الموضوع ذاته هو الذي يخلق تقلبا في المواقف، ولما كان الموضوع ذاته تجربة في حركة مستمرة، نرى الحجاج في كل مقطوعة يزهو بنرجسية مفتخرا بشجاعته وكفاءته واستحقاقه للمنصب الجليل الذي ولاه إياه الخليفة (نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي).

وإلى جانب كل ما سبق ذكره، تسمح بنية الاستدراج للمتكلم والمتلقي بتعدد المواقف الخطابية، وكذا تعدد ذواتهم وتداخلها، وذلك نظرا لتعدد أفعال الكلام من صريحة مباشرة، أو غير مباشرة، كأن يكون القول متضمنا أمرا يفيد طلب حصول شيء، كما قد يحوي الأمر فعل كلام مقدر فيه، حين يخرج الأمر عن غرضه الأصلي ليدل على الدعاء أو النداء أو التمني أو الاسترخاء أو التوبيخ وغيرها، كقول الحجاج (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق)، (...فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي)، (من تخلف بعد ثلاثة أيام بعد أخذ عطائه سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله).

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 110.

وانطلاقا من هذه العبارات نلاحظ أن الذات المتكلمة تنشق إلى أكثر من ذات تبعا لتعدد أفعال الكلام، كما أن أفعال الكلام ذاتها قد تفرض على المتكلم أن يكون ملزما بها أو مجرد مؤول لها (إن أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع المهلب بن أبي صفرة)، ولا غرو أن نجد هذا التنوع والتغاير في المقامات الخطابية مجالا للمتحاور للانتقال بينها[1].

ويمكننا أن نشير هنا إلى أن هذا التغاير لا بد أن يكون نابعا من تفهم الخطيب العميق لدورة التخاطب التي يجسدها عبد الرحمن حاج صالح في الترسيمة الآتية[2].

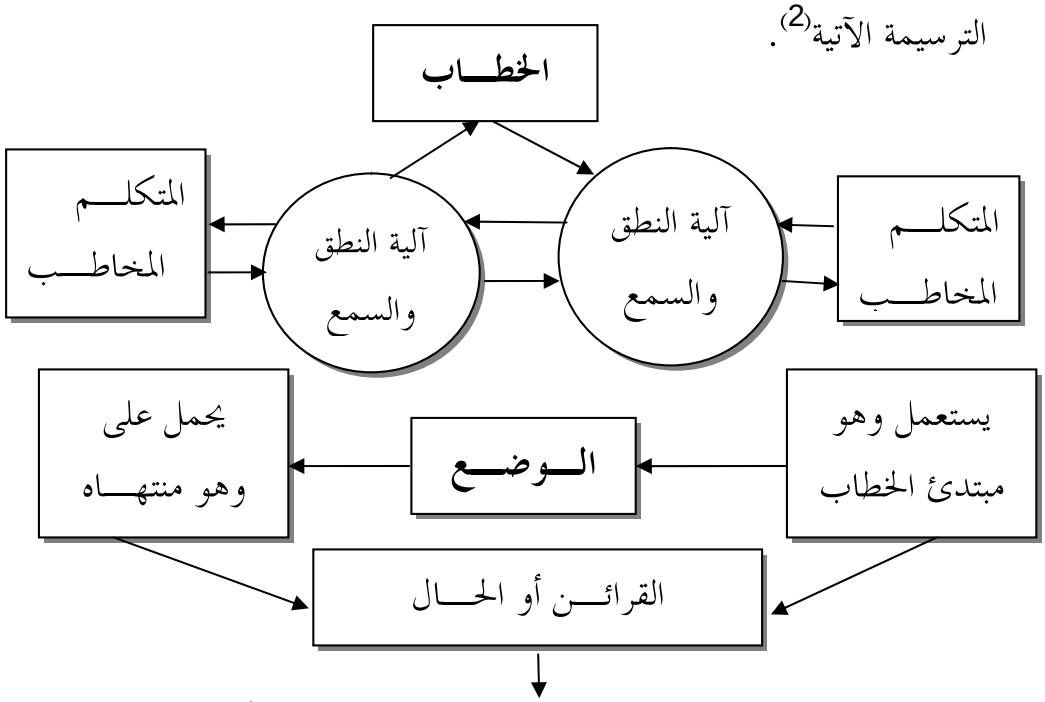

بها يتحدّد معنى الخطاب ومعاني المفردات المرادة وبالتالي أغراض الكلام

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 112.

2)- التحليل العلمي للنصوص، عبد الرحمن حاج صالح، ضمن بحوث في علم اللّسان جمع وتصنيف وتقديم صالح بلعيد، مخطوط تحت الطبع، ج234/1.

واعتمادا على هذه الترسيمة، نلاحظ كيف أن أفعال الكلام –في خطبة الولاية– تتعدد مما يفرض تعددا في الذات المسؤولة عن فعل الكلام، وذلك باختلاف الوظيفة الخطابية لها، فتبدو ذاتا كلية حين الإخبار، وتارة ذاتا مفتخرة، وأخرى حاقدة، ثائرة، مهددة. ويسيطر في هذه الخطبة ضمير المتكلم، وكذا ضمير المخاطب (كم)، إلى جانب العبارات الإخبارية على اعتبار الذات المتكلمة فيها هي صاحبة السلطة في الكلام.

ومن ظواهر بنية الاستدراج في خطبة الولاية اعتماد الحجاج على مبدأ المهاجمة عله يحمل المخاطب على الاعتراض فيتهمه بالشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، كما يتهمه بالعصيان بقوله: «لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي»، ثم لا يلبث أن يعود إلى التهديد والوعيد موظفا القسم «أما والله لألحونكم لحو العصا...» ليبين لهم الأسباب التي جعلته يحقد عليهم ويجمعهم ليلقي عليهم هذه الخطبة، وبعد أن يرهبهم ويرعبهم، يذكرهم بأنهم كأهل القرية التي عصت الخالق ونالت عقابها.

ولعل المتلقي لخطب الحجاج، يدرك أن الحجاج كان على وعي من أن مبدأ المحاججة هو مبدأ التواصل، لذلك توسع بالاشتغال به، سواء باستدعاء حجج جاهزة في هيئة خبرية كالشعر والقرآن الكريم، أو افتراضها مسبّقا في فعل طلبي (هذا أوان الشد فاشتدي زيم)، أو اعتماد القياس والبرهان في عرضها، والشرح والتعليل وغيرها من الأساليب الإقناعية التي وظفها الاستدراج.

وهكذا فإن الإقناع بالحجة في خطب الحجاج يبدو بمثابة القانون الإلزامي الذي يحدث التفاعل به، وهو هنا يرتبط بالإكراه والإحراج كما في خطبة الولاية وفي معظم خطبه.

ومجمل القول، أن الوعي المنهجي للتخاطب لا شك أنه يجسد تلك الصورة التي درج عليها كل خطيب بليغ من خطباء الجاهلية (قس بن ساعدة) إلى خطباء الصدر الأول للإسلام (خطبة الرسول ﷺ وخطب علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب–رضي الله عنهما–) إلى العصر الأموي، ولا شك أن الحجاج قد تأثر بأساليب الاشتغال المنهجي عند المعتزلة الذين يمزجون في المخاطبات بين القلب والعقل معا.

وهكذا فإن «كل نظرية للفعل التواصلي تخفي وراءها نظرية في البرهنة، هي عبارة عن صياغة شكل عقلاني للغة. وبالطبع فإن النظرية البرهانية لا تنفصل عن محتوى معرفي»[1]. وعلى هذا الاعتبار يمكننا القول؛ إن خطب الحجاج تمثل نظرية للفعل التواصلي.

ولقد لاحظنا منذ البداية أن الممارسة الخطابية في الدعاء المتضمن للنداء، يحددها قصد خطابي يتجلى من خلال ذلك النداء كبنية مؤطرة تقترن بجلب مبدأ الفائدة للمتكلم والمخاطب على السواء، وهكذا فإن المظهر القصدي ووظيفته، والاعتراف به من قبل المتكلم في النداء، يعتبر الأثر السابق لفعل النشاط الحجاجي الذي يثري بنية الاستدراج والمحاورة بصفة عامة، حيث إن الملفوظات الحجاجية بينها «مؤداة من قبل الفاعل أو بواسطة أداة أو رابط غير أن المتكلم هو الذي يعطي التعليمات بطريقة توجبه الخطاب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة»[2].

1)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 116.

2)– Argumentation, et Conversation, J.MŒSCLER, Hatier, 1985, P: 65.

وبهذا نرى الحجاج في معظم المنتخبات متلزما بالحجة البليغة قولا وإنجازا يطالب بها الطرف الآخر، باعتبارها قانونا للممارسة الخطابية التي تحفظ فيها حقوق المتخاطبين وواجباتهم التي لا تخرج عن المعيار المنطقي والخلقي في الوقت ذاته؛ الذي أساسه الصدق في القول، وجلب المنفعة للآخر، كأن يكون أثرا يحدث في النفس ويؤدي إلى فعل ما.

وبديهي أن الخطيب لا يقدم الحجة من أجل إلحاق الضرر بالآخرين، وإنما من أجل تقديم النصيحة وقبولها، ولعل هذا ما يعكسه قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله» على أن هذا التهديد الأخير الذي يختم به الحجاج خطبة الولاية، يخلق فرضية للقبول في خضم الوضع التحاوري.

III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج:

مرّ المنطق في علاقته باللغة بمرحلتين؛ تمثلت الأولى في المنطق الأرسطي الذي له علاقة مسبقة ومتوازية بين المنطق واللغة مبنية على أساس التعريفات ذاتها، وهكذا لم يكن المنطق سوى تحليل للفكر القائم على اللغة، أما المرحلة الثانية فقد أسفرت عن القطيعة بين الجانبين (المنطق واللغة) حيث بنى كل من «بول» (Boole) و«مورجان» (Morgan) نموذج المنطق كلغة صناعية تهدف إلى تفادي وجوه القصور في اللغة الطبيعية، كاللّبس وعدم التماسك[1].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص: 12.